ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

الأرواحية عند مجتمع إفريقيا الغربية
السمات والخواص

عبد الله عيسى

باحث في الدراسات الإفريقية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّص

إنَّ دراسة المعتقدات الدينية الخاصة في مجتمع إفريقيا الغربية خلال العصر الوسيط، يتضح منها أنَّ الإنسان القديم قد آمن بوجود قدرات فوق الطبيعة، تساعده على الشفاء من الأمراض سواء أكانت صلوات مرفوعة إلى الإله، أو قرابين مقدمة على ذبحه، أو طقوس سحرية وتعاويذ، ولكن لم تكن هذه فحسب هي ما اعتقد به المجتمعات القديمة في إفريقيا الغربية، فهناك إلى جانب ذلك صنف لا يقل أهمية عن ذلك وهو عبادة الملوك والأسلاف، وهناك أيضًا عدد من الرموز الطقسية والدينية، وعبادة قوة الطبيعة كالشمس والقمر، وأدوات جامدة كالأصنام، أو الحيوانات وغيرها التي اعتقد الأقدمون بدورها الهائل في حياتهم اليومية. وتعرض هذه الدراسة لدور المعتقدات الأرواحية في حياة الفرد في إفريقيا الغربية. وخلص البحث إلى أنَّ علاقة الأرواحية بمجتمع إفريقيا الغربية هي علاقة وطيدة، فتحليل عناصر هذه الديانة يمكننا من فهم أفضل للبنيات الذهنية والفكرية للمجتمع المدروس، والميكانيزمات المتحكمة في مجالات الحياة اليومية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٩ يونيو ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٢٦ يوليو ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الأرواحية الإفريقية، المجتمعات القبلية، عبادة الأسلاف، تقديس الكواكب، إفريقيا الغربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الله عيسى. "الأرواحية عند مجتمع إفريقيا الغربية: السمات والخواص".- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٥. ص ١١٢ – ١١٦.

مُقَدِّمَة

عندما جاء الإسلام إلى إفريقيا في بداية الفتح الإسلامي،[١] لم تكن هذه الأخيرة خالية من أية حركة تعبدية؛ فقد تحدث أوائل المؤرخين، والجغرافيين، والرحالة العرب الذين زاروا المنطقة عن وجود أشكال مُتعدّدة من العبادات والآلهة المحلية، التي لم يكن لها ارتباط بالديانات السماوية. وفي إطار هذه العبادات المحلية، عبد بعض الأفارقة الشجر والحجر، والأحياء والأموات من البشر وفق طقوس تعبُّدية مخصوصة كان يتم التقرب من خلالها إلى عدد هائل من الآلهة . المفترضة . عبر تقديم عدد كبير من القرابين الحيوانية والبشرية والنباتية، أو غيرها من أصناف القرابين والأضاحي التي كانت تُشكل جسرًا مشتركًا، ربط إفريقيا الغربية مع باقي ما عرفته قارات العالم في هذا الميدان قبل وبعد نزول الرسائل السماوية، هذه الأخيرة التي يعتبر الإسلام آخرها وأكثرها بُعدًا عن التحريف، وأقواها تميزًا في ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل، من خلال رفضه لوساطة أيّ كهنوتٍ قد يحتكر المعرفة الدينية، ومن خلال فتحه باب الدعوة أمام كل مُحسِن وعالم وفقيه وتاجر دون إمكانية الرجوع إلى جهة رسمية ما، أو سلطة فقهية ما.[٢]

ونعتقدُ أنَّ النجاح الذي عرفه الإسلام في إفريقيا الغربية، يرجع في قسم كبير منه إلى المشاركة الجماعية الحُرَة في نشر هذا الدين بالحوار، والمعاملة الحسنة البعيدة عن مبدأ العنف والصراع، حيث نسج المسلمون هناك علاقاتٍ طيبةً -في عمومها- مع السكان إلى حدّ أنَّ التعايش بين المسلمين وغيرهم من الأرواحيين صار يبدو عاديًا في كثير من القرى والمدن والغابات،[٣] ففي قرية "بالي" الأرواحية[٤] في مالي -على سبيل المثال- كان للمسلمين خمس

مساجد، وما كان طارئًا في بالي، كان طارئًا في غيرها من مدن وقرى إفريقيا الغربية، التي كان لها وضع ديني متميز وغامض.

فما هي إذن أهم مظاهر الديانة الأرواحية التي وجّهت السلوك اليومي للإنسان في إفريقيا الغربية قبل ظهور الإسلام؟ وكيف مورست الشعائر والطقوس الدينية؟ وكيف تمَّ تنظيم المجتمع في ظل هذه الديانة ؟

أهداف الدراسة:

الأول: معرفة أهم مظاهر وأشكال الديانة الأرواحية في منطقة الدراسة.

الثاني: الكشف عن الأثر الذي أحدثه هذا الاعتقاد الديني على مجتمع غرب إفريقيا.

أسباب اختيار الدراسة:

- التعرف على الحالة الدينية لمجتمع إفريقيا الغربية قبل الإسلام.
- الرغبة في سد فجوة من فجوات تاريخ إفريقيا القديم، وملمة حلقاته المفقودة.
- قلة الدراسات والأبحاث العربية المتعلقة بالجانب الديني في فترة ما قبل الإسلام.

أولاً: مظاهر الأرواحية

١/١- عبادة الأصنام:

يبدو من خلال فحص واستقراء بعض النصوص، أنَّ الفرد الإفريقي كان يعبدُ ما يحلو له من نباتات وحيوانات وكواكب. وفي ذات المسعى، احتلت الأصنام مكانة مرموقة لدى مجموع أرواحيي إفريقيا، سواء عند الزنج والبجة في الشرق، أو عند زغاوة في الوسط، أو عند إفريقيا الغربية في الغرب. وأنَ أشكال تلك الأصنام وطبيعتها تختلف من مجموعة إلى أخرى؛ حيث نجدها عند البعض على شكل تماثيل بشرية،[٥] وقد تكون من طين أو حجر أحيانًا، وكثيرًا ما تكون من خشب، ربما لأن المنطقة كانت كثيرة الغابات، وتوفر بالتالي الكثير من الأخشاب. والملاحظ أنَّ الأصنام لعبت دورًا كبيرًا في حياة السكان، فكانوا يقدمون لها الطعام والقرابين، وكان هناك أصنام ترمز إلى الأمراض والحروب والأسلاف والعدل، وأصنام خاصة بالشيوخ، وأخرى بالنساء، وضعت في معابد لا يدخلها الرجال. بيد أنَّ أهالي إفريقيا الغربية لم يترددوا في مقايضة أنواع من أصنامهم بسلعٍ كانت تأتي بها السفن البرتغالية إلى المنطقة.[٦]

٢/١- تقديس الكواكب والحيوانات:

ومن مظاهر الأرواحية أيضًا، عبادة الكواكب والحيوانات؛ وخاصة الثعبان. وأورد البكري في هذا الصدد مثالاً عن جماعة من السودان، كانت تُقدس هذا النوع من الزواحف. فدأب السكان المحليون على عبادته، وتقديم الطعام والشراب له، وتعليق نفائس الثياب والمتاع على مدخل المغارة حيث كان يعيش، معتقدين في ذلك أنَّ الثعبان وحده يملكُ القدرة على إنزال المطر، وأنَّه المسؤول عن حمايتهم من كل مكروه، وحراسة كنوزهم، بل كان مصدر السعادة والشقاء، ومانح النجاح والفشل.[٧] وغير خافٍ، أنَّ تقديس الثعابين لم يكن خصوصية إفريقية فحسب، وإنما كان معروفًا أيضًا في بلدان وسيطية أخرى، مثل الصين والهند، حيث كانت تحظى بنفس التعظيم. ونفس الأمر يصح عن مصر القديمة، حيث كانت تُعبد آلهة في صورة حية (كوبرا)، تلعب دور حماية الفراعنة، وتحضر في احتفالات تتويجهم، إلى جانب آلهة أخرى.

٣/١- عبادة قوى الطبيعة:

فوق هذا وذاك، لم تكن عبادة النار والكواكب غائبة في الديانة الأرواحية، ولكن يظهر أنَّ الشمس حظيت فيها بمنزلة خاصة. ومن هنا، تكرر ذكر تعظيمها لدى كثير من الشعوب، ولا سيما بمدينتي أدوغست وشواطئ خليج غينيا.[٨]

ودون الخوض في التفاصيل الدقيقة المقترحة بهذا الشأن، يُمكننا القول إجمالاً، إنَّ هناك ارتباط وثيق بين الأرواحية وعبادة الملوك بإفريقيا الغربية، فكانت الرعية تعتقد أنهم قدموا من السماء؛ أي أنَّ لهم طبيعة إلهية تجعلهم قادرين على جلب النعمة والنقمة، كالحياة والموت والعافية والمرض. كما منحتهم تلك الطبيعة سلطة مطلقة على الرعية التي أحاطتهم -نتيجة لذلك- بكثير من مظاهر العبادة والتعظيم، واعتقدت بالتالي أنّهم يُحيونَ بدون طعام. ولعدم المساس بهذا الاعتقاد، كان بعض الملوك يأكلون خفية، وكان آخرون يوهمون الناس أنَّ غذاءَهم يقتصر على كأس من الخمر في اليوم، بينما كان منهم من يتظاهر بأنّه لا يأكل البتة، مثلما هو الأمر عند "زغاوة". بيد أنَّ الملكية المقدسة هذه -رغم مظاهر الخضوع المطلق فيها- كانت لها ضوابط صارمة، تمس على الخصوص مسألتي القدرة والعدل، فقد لاحظ البكري أنَّ الماندينغ في الضفة الجنوبية من نهر غامبيا يقتلون ملكهم، ويستبدلونه بأحد أفراد أسرته إذا تبين لهم عجزه عن ممارسة السلطة بسبب تقدم بالسن، أو مرض عضال.[٩]

٤/١- عبادة الملوك والأسلاف:

وبالمقابل، تظل قُدسية الملك عند الأرواحيين قائمة بعد وفاته؛ إذ يدفن بطقوس خاصة، ويحظى بالعبادة والقرابين، إلى درجة تسمح بمقاربتهم بمنزلة الفراعنة عند قدماء المصريين. وبعد الوفاة يدخل الملوك في إطار الأسلاف الذين كانوا يُعبَدون أيضًا، وكانت عبادتهم تشكل إحدى دعائم الديانة الأرواحية في إفريقيا الغربية قبل دخول الإسلام إليها، فالأجداد بالنسبة للإفريقيين هم المسؤولون عن وضع أسس تقاليد الجماعة وأعرافها، وربوا خَلَفَهم على تلك الأعراف والتقاليد، وموتهم لا يعني بالنسبة لأبنائهم وأحفادهم الفناء، وإنما تبقى أرواحهم بعد انتقالها إلى عالم آخر تُراقب تصرفات الأبناء، فمن حاد منهم عما سنُّوه له من تقاليد أوقعوا به الشر، ومن التزم أحاطوه برعايتهم، مما جعل الإفريقيين

يتقربون إلى أسلافهم بالذبائح عند قبورهم،[١٠] فهذا تفكير ديني يعكس في نظرنا مجموعة من القضايا:

- التقسيم الاجتماعي لشعوب إفريقيا الغربية القديمة.
- أنَّه لم يكن الإنسان الإفريقي بدائيًا كما يحلو للبعض نعته.
- وأنَّ الفرد الإفريقي قد نظّم أموره الدينية وفق عقلية معينة، كما نظّم من شؤونه السياسية والاقتصادية؛ حيث انفتح على العالم المجاور بواسطة تجارة الذهب والعبيد.

٥/١- اعتقاد أهالي إفريقيا الغربية بالسحر والعرافة:

وفي هذا المنحى، غالبًا ما تقترن الأرواحية في إفريقيا الغربية بظاهرة السحر والعرّافة لشرح بعض ضوابط الحياة الاجتماعية مثل الزواج والطلاق، والسلم والحرب، والمرض والاستشفاء، والحمل والولادة، والعلاقة بين أفراد العشيرة، وارتبطت العرّافة ارتباطًا وثيقًا بالسحرة؛ إذ ساهم العرّاف في حل بعض المشاكل اليومية، والحفاظ على التنظيم الاجتماعي السائد، فعزز المفاهيم السائدة، وأيّد الحكم القائم، وساعد في حل الخصومات، فإذا كان القصد من السحر هو تحقيق خير، أو إلحاق شر، فالقصد من العرّافة هو الكشف عن أمر مجهول بمساعدة الأرواح، واستمدت العرّافة قوتها من اعتقاد الإفريقيين فيها.[١١]

ثانيًا: تنظيم المجتمع في ظل الديانة الأرواحية

١/٢- تنظيم الأسرة والعائلة:

تكونت الأسرة في إفريقيا الغربية خلال هذه الفترة من الأب والأم والأبناء، وكذلك الأحفاد. وعاش الجميع في منزل واحد، وانتمى هؤلاء إلى جد مشترك، وارتبطوا فيما بينهم إما برابطة أمومية أو أبوية، فكانوا يرثون أملاك الأم أو الأب. ومن أهم المجتمعات التي طغت عليها العلاقة الأمومية في إفريقيا الغربية مجتمع السرير (La Sérer).[١٢] والغالب على الظن، أنَّ العامل الذي كان يحسم الانتماء الأسري هو جنس الجد المشترك، وكان رب الأسرة المسؤول عن تسييرها، وعن حل كل خلاف قد ينشأ بين أفراد هذه الخلية الاجتماعية، وهو الذي كان يحافظ على الأملاك، ويوزع العمل. وكانت له مهام أخرى تتجاوز أحيانًا حدود بيته، منها المشاركة في مجلس شيوخ القبيلة.[١٣]

لقد كانت الأسرة الممتدة أول مؤسسة اجتماعية تتكون من أفراد متعددين، تجمعهم علاقات متنوعة، ويوحدهم الانتماء إلى جد مشترك. بمعنى آخر، إنَّ مجتمع إفريقيا الغربية في الفترة السابقة للإسلام كان مجتمعًا ترتبيًا، لكن هذا المجتمع لم يكن موحدًا؛ لتعدد الأسلاف والأجداد، ولتنوع الاعتقادات، وكثرة الشعوب. لذلك حاول الإسلام الانتقال بقبائل إفريقيا الغربية من مرحلة التجزؤ في العقائد إلى مرحلة الوحدة الدينية، كما عوض نظام الأسرة الممتدة بالأسرة المحدودة الأفراد.[١٤]

٢/٢- تنظيم القبيلة:

القبيلة هي الشكل الثاني للتنظيم الاجتماعي للشعوب الأرواحية في إفريقيا الغربية، وقد تكونت هذه القبيلة من مجموعة من العشائر. لكن ما هو التعريف الذي يمكن اعطاءه لمصطلح العشيرة؟ يجيب دولافوس (Delafosse) على ذلك، إذ يقول: "إنَّ العشيرة هي في حقيقة الأمر مجموعة من العائلات التي تنتمي إلى جد واحد، وترتبط فيما بينها بعدة علاقات، منها على سبيل المثال، اختيار زعيم القبيلة".[١٥] إنَّ الروح الترابطية التي لمسناها أثناء حديثنا عن الأسرة الأرواحية، نلمسها مرة أخرى في العشيرة التي كانت تتوحد فيما بينها على أساس ديني أولاً، لأنها كانت تنتمي إلى جد مشترك يكون أساس الممارسة الدينية. لكن هذا الجد تعدد بتعدد العشائر والقبائل والمجموعات بإفريقيا الغربية وسوف يحاول الإسلام أن يغير هذه الرابطة التضامنية برابطة أوسع وأعمق، لكل العشائر والقبائل هي رابطة الدين الواحد. كما أنَّ هذه القبائل كانت تستغل مسألة الزواج فيما بينها، لتعزز وتنمي علاقاتها، فرابطة الدم أيضًا لها حضور سياسي في المسألة.

٣/٢- حول بعض المجتمعات ذات القرابة الأمومية:

هناك ملاحظة مهمة يجب إبدائها بهذا الصدد؛ وهي أنَّ جل المجتمعات القبلية كانت تجعل القرابة من ناحية الأم، فالأبناء لا يعتبرون أعضاء في جماعة أبيهم وإنما يعتبرون أفرادًا في جماعة الأم، لذا فإنَّ أقاربها يلعبون في حياة الأبناء دورًا يفوق في أهميته دور أقارب الوالد. ولا أدل على ذلك، من أنَّ للخال في هذه المجتمعات من الحقوق وعليه من الواجبات ما يتجاوز كثيرًا حقوق الأب وواجباته تجاه أطفاله. وقد أثارت هذه الملاحظة انتباه بعض الجغرافيين والرحالة العرب منذ مطلع العصر الوسيط، إذ يقول البكري في هذا الصدد: "وبسي هذا خال تنكامين [ملك غانة ٤٦٠هـ]، وتلك سيرتهم ومذهبهم أنَّ الملك لا يكون إلا في ابن اخت الملك".[١٦]

وقد أبدى الرحالة المغربي ابن بطوطة اندهاشًا كبيرًا للمكانة التي حظيت بها المرأة في مجتمع إفريقيا الغربية، وخصوصًا في مدينة ولاتة. إذ يقول: "ولنساء ولاتة الجمال الفائق، وهن أعظم شأنًا من الرجال، وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب، فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله، ولا يرث الرجال إلا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيئ ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود".[١٧] ولقد ظلت الزوجة في هذه المجتمعات تحتفظ بانتمائها إلى قبيلتها حتى بعد زواجها، وتمارس سلطة غير محدودة على أبنائها إلى درجة يمكنها أن تختار زوجة لأبنها دون استشارة أحد.

نستنتج إذن بأنَّ إفريقيا الغربية قد عرفت في عصورها القديمة انتشارًا واسعًا للأرواحية، والتي نظمت الممارسة الدينية وحددت عناصرها وأهدافها وطقوسها. كما أثرت على تنظيم الأسرة

والقبيلة، ولا بأس الآن ونحن بصدد هذا الموضوع أن نتعرف على أهم الشعوب الأرواحية التي ظلت تحتفظ بمعتقداتها الوثنية.

٤/٢- نموذج من بعض الشعوب الأرواحية:

لقد وجد الرحالة المسلمون شعوب إفريقيا الغربية تدين بمعتقدات مختلفة، تتفرع في مجملها عن الديانة الأرواحية. وقد خلَّف لنا لهؤلاء نصوصًا قليلة تخبرنا عن هذه المجتمعات؛ فنجد البكري يصف لنا سكان مملكة غانة بأنهم كانوا يعبدون ثعبان كبير، وأنهم كانوا يعتقدون في استمرار الحياة بعد الموت، لذلك كانوا يزودون الملك المتوفى بما يحتاجه من طعام وخدم. أما ملك مالي فقد حطم الدكاكير "أي الصنم" عند إعلانه لإسلامه.[١٨] وفي نص آخر ذكر، ذكر المؤرخ عبد الرحمن السعدي في كتابه "تاريخ السودان" بأنَّ أهالي مملكة سنغاي[١٩] كانوا يعبدون قبل إسلامهم، حوتًا عظيمًا.[٢٠]

وإذا كانت هذه الشعوب الكبرى (غانة – مالي- سنغاي) قد اعتنقت الإسلام منذ حوالي القرن الحادي عشر الميلادي، فهناك مناطق أخرى ظلت ترتبط بمعتقداتها الأرواحية القديمة مثل شعب الموسي (Mossi)،[٢١] والصوصو (Sosso)، والبمبارا (Bambara).[٢٢] فلا بأس إذن من التعرف على بعض هذه الشعوب، ولنأخذ شعب الموسي كنموذج؛ حتى يسهل علينا تفسير مسألة استمرارية بعض المظاهر الأرواحية بمنطقة الدراسة، وشرح أسباب معارضتها للإسلام بأراضيها. لكن الباحث في هذا الموضوع يعاني من ندرة النصوص المكتوبة، ولقد لاقى المؤرخ السوداني محمود كعت نفسه صعوبة تحديد أراضي الموسي بدقة. واكتفى بالقول بأنهم كانوا يُغيرون في عهد مملكة مالي على الجزء الغربي من ثنية نهر النيجر بقيادة موسي كي [أي ملكهم].[٢٣]

والغالب على الظن، أنَّ قبائل الموسي قد توحدت ابتداءً من القرن الثالث عشر الميلادي على الأقل، فكونت كيانًا سياسيًا خضع لمملكة مالي إبان قوتها، بدليل أنَّ حاكمها كان يحمل نفس المنصب الإداري الذي حمله حُكام الولايات على العهد المالي. ولا ريب أنَّ أيضًا قد استقلت بمجرد ضعف الماليين، وهذا ما يفسر لنا محاولة الموسي السيطرة على تنبكت؛[٢٤] لمكانتها الاستراتيجية وذلك في سنة ١٣٣٧م. يقول السعدي: "ثم غزا إليها [أي تنبكت] في أيام مملكة مالي سلطان الموسي في جيش عظيم، فخاف منهم أهل مالي، وهربوا وتركوا البلد لهم، فدخل فيها وأفسدها وحرقها وقتل من قتل وأكل ما فيها من الأموال، وولى إلى أرضه ثم رجع إليها أهل مالي".[٢٥]

وتواجهت قبائل الموسي خلال القرن ١٥م مع سني علي مؤسس مملكة سنغاي، وانتهت المعركة بانهزام الملك الموسي واندحار جيشه وملاحقته إلى العاصمة. يقول كعت: "وسمع سني علي بخبر سلطان موسي والمسنى كمداع، وارتحل من دياره، والتقيا في كب وهزم جيشه، وتبعه إلى البنبارا، ونجا بنفسه حتى دخل في بلده في دار مملكته المسمى أرقم".[٢٦] إنَّ ما استهدفت الوصول إليه من وراء تقديم هذه الإشارات عن التاريخ السياسي لشعب الموسي، هو أن أظهر أنَّ هذا الكيان كان قويا من الناحية العسكرية في معظم الفترات، وهذا ما يفسر لنا معارضتهم لنشر الإسلام.

أما من الناحية الدينية، فقد احتفظ شعب الموسي بعبادة الأسلاف؛ فقد كان لهم معبد خاص يقيمون فيه طقوسهم الدينية، ويستشيرون فيه أجدادهم في أمورهم الهامة، من ذلك ما ذكره مؤرخ تنبكت، عبد الرحمن السعدي عندما استقبل ملكهم"نعسر" رسولاً من طرف الأسكيا [أي الملك] الحاج محمد[٢٧] (١٤٩٣-١٥٢٨م)، يطلب إليه الدخول في الإسلام. لكن الموسيين فضلوا التشبث بديانة أسلافهم التي اعتادوا عليها منذ قرون خلت. يقول السعدي في هذا الصدد: "وفي السنة الرابعة من الهجرة، غزا الأسكيا الحاج محمد غزوة نعسر وهو سلطان الموسي، ومشى معه السيد المبارك مور صالح جور، فأمره أن يجعلها جهادًا في سبيل الله، فلم يخالفه في ذلك، فطلب أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد من السيد المذكور أن يكون رسولاً بينه وبين سلطان الموسي، فقبل ووصل إليه في بلده وبلغه رسالة أسكيا الحاج محمد في الدخول في الإسلام، فقال له حتى يشاور آباءه الذين في الآخرة، فمشى إلى بيت صنم مع وزرائه ومشى هو معهم ليرى كيف يشاور الأموات، فعملوا ما يعملون من عوائدهم في صدقاتهم، فقال نعسر للسيد المبارك: إرجع وقل له: ما بيننا وبينه إلا الحرب".[٢٨]

نلمس إذن من هذا النص، إنَّ هناك إصرارًا كبيرًا على التشبث بالأرواحية ورفض الإسلام، لأن من شأن اعتناقه أن يفقدها وحدتها العضوية؛ مما يعني أنَّ هناك شعوب إفريقية ظلت تعتنق الأرواحية بالرغم من ظهور الإسلام، وخصوصًا شعب الموسي، وهذا على عكس ممالك (غانة، ومالي، وسنغاي)، التي اعتنقت الإسلام طواعية. إذًا يمكننا القول، أنَّ شعوب إفريقيا الغربية قد اقسمت ما بين قبائل احتفظت بديانتها الأرواحية، وأخرى اعتنقت الإسلام، وعملت على نشره والعمل بمؤسساته ونظمه.

خاتمة

هذه إذن هي صورة الأرواحية الإفريقية بمختلف عناصرها ومظاهرها، وهي صورة قد تتغير تفاصيلها قليلاً أو كثيرًا من جماعة إلى أخرى، وحتى داخل الجماعة الواحدة نفسها. لهذا، فإنَّ أغلب الأصنام والآلهة والشعائر التي استعرضناها، إنما تهم جهة بعينها، على الأقل من خلال المصادر. ورغم ذلك، فإنَّ الأرواحية الإفريقية تجمعها قواسم جوهرية مشتركة، تضفي عليها نوعًا من الانسجام على مستوى النظرة إلى الحياة والكون. وعلى الرغم من تدين الأفارقة الشديد، وارتباطهم بدينهم، وملامح العنف البادية على ممارساتهم الدينية؛ فإنَّ لتلك الديانة فلسفة سامية ظهرت جليًا في النظم السياسية والاجتماعية المحلية. وتدعونا هذه الخُلاصة إلى طرح سؤال هام -سنعمل على مناقشته في دراسة لاحقة- وهو: **عندما اعتنق الفرد الإفريقي الإسلام، هل تخلى بشكل كُلي عن عقيدته الأرواحية هذه؟ أم أنَّه احتفظ ببعض مظاهرها؟ وما أثر هذا الاحتفاظ على مستقبل الإسلام في إفريقيا؟**

الهَوامِشُ:

(١) أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، (القاهرة: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٧)، الجزء الخامس، ص٢٨٤.

(٢) عبدالله عيسى، "**الإسلام والوجود الأوروبي بفضاء السنغامبيا ما بين القرنين ١٥ و١٧م**"، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الدراسية (٢٠١٣- ٢٠١٤)، ص٤٩.

(٣) Marty (P.), **Etudes sur l'islam et les tribus maures (Paris :les Brakna,** (E. Leroux, 1921) , p. 141.

(٤) **الأرواحية**: مصطلح حديث، يستعمل في حقل الدراسات الإفريقية للدلالة على المعتقدات الإفريقية القديمة، والاصطلاح ترجمة للكلمة الفرنسية: (Animisme) أو (Fétichisme).

(٥) أبو عبيد البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، تحقيق دوسلان، (باريس: ميزونوف، ١٩٦٥)، ص١٨٣.

(6) Ca Da Mosto (A .De), **Relation des voyages a le cote occidentale d'Afrique**, (Paris : publié par M. Charles Schefer, 1895) , p 161.

(٧) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص ١٧٣. مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**،(الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ١٩٨٥)، حققه، سعد زغلول عبد الحميد، ص ٢١٨.

(٨) كربخال مارمول، **إفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، (الرباط: دار نشر المعرفة، ١٩٨٤)، الجزء الثالث، ص ٢٤٣.

(٩) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص. ١٧٤.

(10) Vincent (L.T.) Luneau (R.), **La terre Africaine et ses religions,** (Paris: L'Harmattan), P. 100.

(١١) سامي سعيد، "**مساهمة في دراسة تاريخ الحياة الدينية في السودان الغربي خلال العصر الوسيط: الدين والعلم في عصر الأسكيين ١٤٩٣ - ١٥٩١م**"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الجامعية ١٩٩١ - ١٩٩٢، (مرقونة)، ص. ٧٢.

(12) Ca Da Mosto, **Relation des voyages a le cote occidentale d'Afrique ,** op.cit, p 175.

(13) Delafosse (M), **Haut – Sénégal – Niger : Le pays, les peuples, les langues**, (Paris : Maisonneuve et Larose, Nouvelle édition,1972), p 39.

(14) Ibidem, p 60 .

(15) Ibidem, p 60 .

(١٦) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ١٧٥.

(١٧) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق محمد عبد الرحيم، (دمشق: دار الأرقم، الطبعة ١، ٢٠٠٩)، ص ٣٧٦.

(18) Ca Da Mosto, **Relation des voyages a le cote occidentale d'Afrique ,** op.cit, p167.

(١٩) **مملكة سنغاي**: تأسست هذه المملكة في القرن السابع الميلادي من قبل قبائل سنغاي المقيمة على وادي النيجر بين بوريم وساي، دخلها الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي على يد المرابطين على المرجح ، ولقب أمراؤها بـ "زا" حتى سنة ١٣٣٥م ثم بـ "سني". وكانت عاصمتهم كوكيا على نهر النيجر الأدنى ثم انتقلت إلى كاغ وقد حكمت مملكة سنغاي عائلة ضياء التي يظن أنها من منطقة طرابلس حتى سنة ١٣٣٥م حيث أعقبتها أسرة سني. وعرفت هذه المملكة ذروة مجدها وتوسعها في عهد أسرة الأسكيا التي امتدت حدودها إلى المغرب الأقصى تقريبًا، وشملت مناجم الملح في تغازة وكانت أراضيها شرقا تشمل بلاد الحوسا وتتصل بأراضي سلطنة برنو. سقطت هذه المملكة نتيجة هذا الصراع بعد الحملات التي وجهها أحمد المنصور السعدي أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وذلك في إطار الرغبة في الاستيلاء على مصادر ثروة المنطقة والذي كان منذ القديم مصدر تزاحم بين قبائل ودول المنطقة. راجع: محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس** ، (باريس: ميزونوف، ١٩٨١)، ص ٣- ٤٣

(٢٠) **تاريخ السودان**، ص ٤.

(٢١) **الموسي**: تكتب بالمصادر السودانية بهذا الشكل: موش. والموسي هي قبائل أتت من الشرق حسب بعض الروايات الشفوية، استقرت في البداية على الضفة اليسرى من نهر النيجر. راجع: **تاريخ الفتاش**، ص ١٥٤.

(٢٢) **البمبارا**: هي إثنية وثنية سوداء، تقطن ببلاد كارطا (Karta) في شمال شرق نهر السنغال. راجع: **عبدالله عيسى**، **"الاستراتيجية العسكرية للاستعمار الفرنسي في السنغال"**، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة الحسن الثاني (الدار البيضاء - المغرب)، العام الدراسي ٢٠٠٨- ٢٠٠٩هامش صفحة ٢٩

(٢٣) **تاريخ الفتاش**، ص ١٥٤.

(٢٤) **تنبكت**: تأسست على نهر النيجر الأعلى، كان لها دور كبير في الحركة الثقافية والتجارية في المنطقة. تأسست في القرن ٥هـ/ ١١م على أيدي الطوارق، وأصبحت تنبكت في القرن ١٠هـ/ ١٦م منارًا للعلوم والثقافة الإسلامية في إفريقيا. راجع: **تاريخ السودان**، ص٢١.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ٨.

(٢٦) **تاريخ الفتاش**، ٤٥.

(٢٧) **الأسكيا الحاج محمد (٨٩٩- ٩٣٥هـ/ ١٤٩٣- ١٥٢٨م)**: هو أول ملوك آل أسكيا ومؤسس حُكم دولتهم، تولى السلطة سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٣م، بعد الإطاحة بسني بارو، آخر ملوك أسرة سني، أشار المؤرخ محمود كعت إلى أنَّ هذا السلطان كان جليل القدر بين أهله، كما كانت له من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى، ولا يوجد له مثيل لا من قبل ولا من بعد. أجمعت أغلب المصادر على حنكته وقدرته على إقامة تنظيمات إدارية جيدة، إلى أن أصيب بالعمى وعزله ابنه أسكيا موسى، وتولى الحُكم محله، وبعد الإطاحة به دخلت مملكة سنغاي منعطفًا جديدًا، تميزت بالصراع المرير بين الأمراء حول الحُكم، لهذا انتشرت في صفوفهم الحرب والفتن، وهو ما أدى إلى انهيار كل ما بناه هذا السلطان. راجع: **تاريخ الفتاش**، ص ٥٩.

(٢٨) **تاريخ السودان**، ص ٧٤.